بريد الجمعة

ثراء المعارف الرقمية

بريد الجمعة

الجمعة ٦ مارس ١٩٩٨

يكتبه : عبد الوهاب مطاوع

الرمال الحارقة!

لم أجد من أكتب إليه سواك عن هذه المشكلة التى تهدد حياة أسرة بأكملها داعية الله أن يوفقك إلى الأسهام فى حلها بالرأى السديد إن شاء الله .. ولقد بدأت القصة حين كانت شقيقتى فى السابعة عشرة من عمرها، وكانت ومازالت طيبة القلب وحدوتا وعاطفية إلى أقصى حد، وفى هذه المرحلة من عمرها أحبت شابا من جيراننا فأسبغ هذا الحب هو كل حياتها، ولكنها - لظروف عائلية - تزوجت بأحد المقربين منا، وأملنا نحن أفراد أسرتها أن تنسى شقيقتى حبها الأول وأن تتوأم مع حياتها الزوجية الجديدة، لكنها بالرغم من انقطاع كل صلة لها بجارنا الشاب.. وعدم تجاوز علاقتها به الحب الصامت والاهتمام بأمره وتقصى أخباره من بعيد، ظلت رافضة زوجها نفسيا وتعامله معاملة قاسية، ولا تهتم ادنى اهتمام به حتى انني لا أذكر انني قد رايتها يتحادثان حديثا وديا كما يفعل كل خطيبين، وبعد أسبوعين من الزواج رجعت إلى بيت أسرتنا لتقيم فيه بضعة شهور، بلا خلاف مع زوجها، أو مشاكل تستدعى ذلك، ولغير سبب سوى انها كما قالت تكره بيت الزوجية ولا تريد البقاء فيه، وهكذا أصبحت اقامتها شبه دائمة فى بيت الأسرة، وأصبحت لاتذهب إلى بيتها إلا لفترات قصيرة كل بضعة أشهر وبعد رجاء، حاد من زوجها، وضغط شديد من أبى وأمى، وبعد فترة أخرى من الزواج اكتشفت شقيقتى أنها حامل فسعدت أنا شخصيا بحملها كثيرا على أمل أن يوثق الانجاب من روابطها بزوجها وبيتها، لكنى فوجئت بها ترغب فى إجهاض نفسها، وتسعى إلى ذلك بكل الحيل فيرفض الأطباء الاستجابة لرغبتها باصرار ويحذرونها من أن حياتها ستكون فى خطر اذا هى حاولت ذلك، وأنجبت شقيقتى طفلتها فاذا بها لاتكاد تهتم بأمرها فى قليل أو كثير وتترك امر رعايتها الكاملة لأمى، كما ظلت مقيمة فى بيتنا اقامة شبه دائمة تذهب وتجىء فى هدوء وتتعامل مع الجميع بسماحة طبعها التى تجعلها تعطى كل ما فى يدها لغيرها برضا، وزوجها يجىء لزيارتها كما لو كانا خطيبين فى فترة الخطبة.. وكلما جاء اسودت الدنيا فى وجهها مع أنه إنسان طيب لاتفصى حد ويحبها، وظلت العلاقة الزوجية بينهما على هذا الحال بضع سنوات.. حتى يئس الجميع من أن ينفتح قلبها لزوجها أو تحسن عشرته، إلى أن فوجئنا بها بعد بضع سنوات من الزواج تعلن رغبتها فى العودة إلى بيت زوجها لتحيا معه بصفة دائمة وفرحنا جميعا بهذا القرار، وطار زوجها فرحا به أيضا، ورجعت إلى بيتها ونحن ندعو لها الله أن يهديها ويثبت قدميها فيه.. لكن الأمال الوردية لم تظل فترتها، ورجعت مرة أخرى إلى بيتنا بعد بضعة أيام - لاتزيد - باكية ونادمة، وتقول انها قد حاولت، أن تعيش مع زوجها لكنها لم تستطع ذلك، وكانت شرة هذه العودة القصيرة إلى بيت زوجها طفلا آخر وظلت شقيقتى مقيمة فى بيتنا طوال سنوات، وكلما حاول أبى وأمى والجميع أن يتحدثوا إليها عن حق زوجها وأولادها عليها بكت وقالت انها لاتستطيع الحياة معه نهائيا وانها تكرهه مع العلم بانه رجل طيب وتتمناه اية فتاة أخرى ويحبها، لكن ظروف حياته قد اضطرته لأن يتحملها من أجل طلاقيه ولانه لايريد أن يأتى لهما بزوجة أب أو بزوج لأم فينشأن فى ظلال أم غير أمهما أو أب غير أبيهما.

اما جارنا القديم الذى أحبته شقيقتى كل هذا الحب اليائس الحساس، فلقد تزوج منذ زمن طويل وأنجب ويعيش حياة طبيعية وهادئة للغاية مع زوجته، وبالرغم من كل ذلك فإنى أحس إحساسا كاليقين بأن شقيقتى مازالت تفكر فيه كأنما كان هو الرجل الوحيد على سطح الأرض، ولست فى الحقيقة أستطيع أن أوجه إليه أى لوم لانه لايتصل بها، ولم يشجعها على شىء طوال سنوات هذا الحب اللعين الذى قارب حتى الآن العشرين سنة، لكنى ألقى باللوم كله على أختى التى ظلت لسنوات طويلة تعيش كالراهبة وتتحمل كل شىء، صاب فى الحياة إلا ان ترجع لزوجها، ونرفض أن تقبل منه أى نقود وهى مقيمة فى بيت أهلها سواء لنفسها أو لولد، بها اللذين يعيشان معها وتتكفل أبى بهما وبها .هى إنسانة مثقفة ومتدينة وطيبة ولا تفعل شيئا يغضب ربها، لكنه قد أعيتنا كل الحيل معها لكى ترجع إلى رشدها، وتهتم بزوجها وتقيم معه فى بيت الزوجية وتحيا حياة طبيعية معه ومع أبنائها، فأرجو منك أن تنصحها بالعودة إلى زوجها وولديها وبأن تدع هذه الهواجس التى مازالت تراودها حتى الآن وتفسد عليها حياتها، فهى لاتستطيع أن تتزوج من أحبته لانه يعيش حياته الطبيعية الهانئة مع زوجته ولا ينكر فى تقييرها.. فهل تفعل ذلك بأسبدى من أجل ابنيها بزوجها ومن أجلها هى أيضا لكيلا تظل بقية العمر على هذا الحال المؤسف؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

ليس أمامها - ياسيدتى او انستى - خيار آخر عدا العودة إلى زوجها ومشاركته حياته الكاملة.. وتنشئة ابنيها تحت سقف واحد مع ابويهما، إلا الانفصال الكامل عنه، وإنهاء هذا الوضع الشاذ الذى طال بينهما لأكثر من ١٥ عاما بلا مبرر مقبول، وليس هناك بديل ثالث لذلك ان المساكنة والمعايشة الكاملة هى جوهر الزواج فى المفهوم الدينى له طلبا للعصمة والعفاف، واطمئنان القلب. كما ان جوهر الرابطة الزوجية فى الدراسات الحديثة يتمثل فيما يسمى «الشعور بالمعية» اى ان يشعر كل طرف من طرفى العلاقة بانه يعيش «مع» إنسان يشاركه حياته واهتماماته وآماله وأفراحه وأحزانه.. مما يوجد نوعا من الوجدان المشترك بين الطرفين، فاذا عاش الطرفان تحت سقف واحد واغترب كل منهما بالرغم من ذلك عن الآخر نفسيا وعاطفيا وانطوى على افكاره وخواطره وأحزانه بعيدا عن الآخر ودون أن يشركه فيها، افتقدت العلاقة جوهر الوجدان المشترك فيها، وابتعدت كثيرا عن المثال الصحيح لها، فما بالك اذن اذا افتقد الطرفان فيها إلى جانب ذلك ايضا شرط المساكنة والمعايشة.. والوجود تحت سقف واحد لرعاية الابناء وحمايتهم من الأخطار؟

وماذا يتبقى من مضمون الزواج بعد ذلك لكى يحرص عليه اطرافه او يتذرع أحدهما بتضحيته من أجل اطفاله لاستمرار هذا الوضع الغريب إلى ما لانهاية؟ لقد كان من المقبول ان يصبر زوج شقيقتك لبعض الوقت على مفارقة زوجته له واقامتها الدائمة فى بيت اسرتها منذ تزوجها، على أمل ان تراجع نفسها خلال فترة معقولة من الزمن وتعيد تقويم موقفها من زوجها، وتعود للحياة معه، انصافا له ولأبنائها من نفسها، أما ان يستمر هذا الوضع العجيب لأكثر من ١٥ عاما، ودون ادنى بارقة أمل فى انصلاح الاحوال فى المدى المنظور أو اية رغبة فى حسمه وانهائه، فهذا هو حقا الشذوذ الذى يعنى اللجوء إلى البديل مع وجود الشىء الأصيل فى متناول اليد.. والحق انني لست فى حاجة لأن اكرر موقفى المعروف من كراهة الانفصال بين الزوجين اللذين انجبا اطفالا يحتاجون إلى رعايتهما لهم معا، لكنى فى حالة شقيقتك هذه لا أرى التمسك بهذا الموقف إلى ما لانهاية اذا هى اصرت على استمرار هذا الوضع العجيب لحياتها الزوجية للأبد، لانه لايحقق هدف تنشئة الأطفال تحت سقف واحد بظلهم مع ابويهم مهما كان نوع العلاقة بينهما ولا يحقق هدف حماية الأسرة والدفاع عنها ضد أهواء النفس وتقلبات المشاعر الجامحة، ولا يعصم طرفى العلاقة الزوجية من الخطأ او الخطيئة.. ولهذا فلابد من حسم هذا الوضع الشاذ.. إما بعودة الزوجة إلى زوجها وبيتها وإما بالانفصال الكامل بين الزوجين وتطلع كل طرف منهما إلى حياة طبيعية فى اتجاه آخر، ومن يدرى فلربما يؤدى حسم هذا الوضع لشقيقتك إلى ان تعرف بالتجربة العملية معنى كلمة «مطلقة» وتؤدى ضريبتها الثقيلة.. فتعرف «بمفهوم المخالفة» قيمة الحياة الزوجية التى فرطت فيها بلا ضرورة وقد يدفعها ذلك لاعادة النظر فى رفضها القاسى لزوجها وحياتها معه منذ البداية، والحق انني اشعر بان هذا الزوج المعذب لم يحتمل كل هذا العناء الذليل معها لمجرد انه يرفض ان يحل اما اخرى بديلة محل أمهم التى تتمسك بالانفصال الفعلى عنه منذ تزوجته، واكاد اتصور انه قد تجرع كل هذا العذاب ليس فقط لحساب تضحيته من اجل ابنائه، وانما ايضا لحساب عاطفته الحسيرة العميقة تجاه زوجته.. فكانما قد تمثلت فى هذه العلاقة الزوجية الغريبة صورة فريدة للحب المحروم اليائس القاهر للارادة لدى طرفيها على السواء فالزوجة تتوجه بمشاعرها التى تعجز عن مغالبتها رغم تسليمها بلا جدواها إلى من لايكاد يشعر بوجودها فى الحياة منذ حوالى عشرين سنة والزوج يتوجه بمشاعره المتأججة المحروبة إلى من لاتشعر به، ولا ترغب فيه منذ ارتبط بها وكل منهما لايباس من «الفوز» ذات يوم بقلب من يحب مع أن كل الشواهد المحيطة أن تحيط هذا الأمل المحروم لديه، تماما كما يراود المريض المهووس من شفائه الأمل الغامض المبهم فى أن يبرأ فجأة من كل الأوجاع بطريقة سحرية لايعرف كنهها!

فاى عذاب حكم كل منهما به على نفسه؟

واى شىء فى الحياة يستحق كل هذا العناء الذليل الذى لا طائل تحته سوى تعذيب النفس بالأحلام المستحيلة ؟!

وماذا جنى هذا الزوج الذى قد تتمناه اى امرأة اخرى كما تقولين لكى يلقى من زوجته كل هذا العذاب المهين، وقد سعى إلى مسعاته بالطرق المشروعة وطرق باب شقيقتك فلم ترفضه وانما جنت عليه وعلى نفسها وأطفالها منه بقبولها للارتباط به وهى تطوى صدرها على هوى راسخ كالجبال لإنسان آخر غيره؟

ولماذا لم ترفضه مادامت لم تشعر ازاءه باى امل فى التجاوب مع مشاعره ذات يوم.. ولماذا لم تحاول باخلاص ان تعين نفسها على القبول به؟ إنها تزعم انها قد «حاولت» أن تعيش مع زوجها فلم تستطع.. فاية محاولة هذه التى لم تستغرق فى مجموعها سوى بضعة أيام متفرقة على مدى ١٥ عاما؟.. وأين مغالبة النفس ومجاهدتها للقبول بحياتها الزوجية بعد أن انجبت، وإلى الحد الذى تشعر معه بصدق انها قد بذلت كل ما فى وسعها لإنجاح حياتها الزوجية فاذا كانت قد عجزت نهائيا عن الاستمرار وآبت مساعيها ان تتفتح لمن شاركته الحياة فلا بأس عليها من التسليم بالفشل بعد ان تكون قد ابرات ذمتها امام ربها من اى جهد كان بوسعها ان تبذله.. وبخلت به على ابنائها وزوجها ونفسها؟

ان الاجتهاد لغويا هو بذل كل ما فى الوسع لبلوغ المطلوب.. فهل تستطيع شقيقتك ان تقول عن نفسها أنها قد فعلت ذلك بأمانة فى حياتها الزوجية او مع زوجها؟

وهل تستطيع ان تقول ايضا بضمير مطمئن انها قد انصفت زوجها من نفسها، وحاولت بكل ماتملك من جهد ان تحمى صغارها من اضرار التمزق بين ابوين يعيش كل منهما بعيدا عن الاخر إلى ما لانهاية؟

ان رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم الذى أوصى الرجال بالرفق بالنساء «لانهن عوان عندكم» اى : اسيرات هو ايضا من قال . ولا ينطق عن الهوى . «ما معناه» لاتؤذى امراة زوجها فى الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين لاتؤذيه قاتلك الله فانما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك اليها.. فاى اذى واى عذاب انزلته شقيقتك بزوجها الصابر عليها كل هذه السنين؟.. وكيف تتفق ظلمها البين هذا له ولابنائها مع ماتقولين عنها مع أنها متدينة وقد شرع لها ربها أن هى عجزت عن احتمال عشرة زوجها ان تنفصل عنه عسى ان يجد كل منهما ماحرم منه من سعادة وامان فى طريق آخر؟

لقد تخيل الشاعر الإيطالى العظيم دانتى فى الكوميديا الالهية عقاب من لايحفلون بالروابط الأسرية فتصور ان الاقدار قد حكمت عليهم بالسير الأبدى فوق رمال حارقة ملتهبة، لايستطيعون التوقف عن مشيهم فوقها للحظات عسى أن يخفف السير لسع الرمال الحارقة لأقدامهم العارية، فإن أرهق السير احدهم وتوقف للحظات جمد فى مكانه مائة عام يكابد خلالها لهيب الرمال بغير ان يتخلف من بعض لذعه وهذه الصورة البشعة من خيال الشعراء.. فما بالنا بعقاب السماء لظالمى غيرهم بغير ذنب جنوه؟

ياسيدتى انني اطالب شقيقتك بان تحسم امرها، وتنهى هذا الوضع المعلق الغريب فترجع إلى زوجها ونهيء لأبنائها ما يستحقونه من حياة طبيعية مستقرة إذا صدقت رغبتها فى مقالية نفسها وربها عن التعلق بالحلم المستحيل فى الآخر، او تطلق سراح زوجها وتلك اسوء، وتعينه على ضعفه معها بأن تتمسك بالانفصال الرسمى عنه، عسى ان يشجعه ذلك على التحرر من ذل هواها.. وبدء حياة جديدة مع من ترغب فى العيش معه.. وترى فيه أملها، وقد تكون اكثر حنوا على أطفاله ممن تركت كل شان رعايتهم لأمها، ولم تحفل بهم منذ مولدهم لانهم فى نظرها ثمار علاقة زوجية كرهتها من قبل البداية . فقولى لها كل ذلك ثم دعيها تختار لنفسها ماتشاء.. وتتحمل تبعات اختيارها، لانه فى البداية وفى النهاية «ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء».. صدق الله العظيم.. وشكرا.